جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم العلوم الانسانية

المقياس: منهجية وتقنية البحث التاريخي 1
السداسي الثالث
السنة الثانية ليسانس تاريخ

المحاضر رقم 05: نشأة وتطور علم التاريخ

تقديم:

إن تطور الإنسان منذ البدايات الأولى لوجوده على سطح الأرض مرّ بالعديد من المراحل عبر التاريخ والعصور إلى أن وصل إلى ما هو عليه في عصرنا الحالي عبر رحلة طويلة وشاقة وفق قواعد وأسس كانت حافزا ودافعا له لكي يفكر ويكتب ويطور من ذاته البشرية من أجل أن يفيد المجتمع الذي وجد فيه، وتستفيد منه البشرية جمعاء في كافة مجالات الحياة المختلفة، ليصاحب ذلك كشوفات متعددة أدت إلى عملية التطور الحضاري في العالم والذي واجهته العديد من الصعوبات والعراقيل المختلفة، ولعل أهمها التحديد الجغرافي والبيئي والذي لم يمنع المجتمعات وخاصة العربية من عملية الاستمرار والتواصل والإصرار على الإبداع، لهذا لعب عظماء الرجال دورا كبيرا وبارزا في صنع التاريخ نتيجة العديد من المؤثرات المختلفة التي أهلتهم ليكونوا نوابغ وزعماء خلدوا أسمائهم بأحرف من ذهب، بعد أن سمح لهم عصرهم التفوق على غيرهم وأن يتهيأ لهم الجو المناسب لبروزهم وتمكنهم من تفهم واستشعار آمال وآلام أمتهم لأداء دورهم في مراحل معينة كانت فاعلة ومؤثرة في حركة التاريخ.

تطور علم التاريخ عبر العصور:

- **البدايات الأولى لعلم التاريخ:**

شغلت بعض الأمور الذهن البشري منذ أن وطأت أقدامه الأرض لضمان التواصل والاستمرارية عبر الزمان عن طريق تخليد الآثار والتي ستصبح ماضيا في يوم من الأيام، كما

كان هم الإنسان اكتشاف من أين أتى وما سبقه ليسوغ حاضره وماضيه، وهكذا فقد نقلت لنا الكتابات الأولى للإنسان عن طريق الأسطورة حوادث تصنع أصولها بعيدا في غياهب الزمن، وهذا خير دليل على أنه قبل اختراع الكتابة نقل الإنسان شفاهيا وعلى امتداد الأجيال بعض معارفه عن الماضي، ودليل ذلك أن ما سجله من الصور على الصخور وفي الكهوف كان جزءاً من قصص حياته المختلفة.

تقدم أسلوب التأريخ في الحضارتين اليونانية والرومانية وكان قد بدأ هناك أسطوريا وهو ما نلاحظه في الإلياذة والأدويسة لهوميروس، ثم بعد ذلك تخلّص من الأسطورة والصياغة الشعرية مع مرور الوقت ليظهر بذلك مؤرخون من أمثال هيرودوت وتوثوديدس وبوليبيوس واسترابون وغيرهم.

خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد اهتم اليونانيون بتاريخهم وصوروه تصويرا فنيا خياليا ممزوجا بأسلوب أدبي نجح في تقريب التاريخ إلى إدراك المعاصرين، ليتبين أن قصة الإنسان مع الحضارة والفكر بدأت منذ ستة آلاف سنة قبل الميلاد، كما برز الإغريق في صناعة التاريخ ليخلدوا أسماء العديد من المؤرخين أمثال إتاليس وهيكتوس وهيرودوت ثم هيلانيكوس وتوسيديد إلى أن ظهر كزينوفن وإفوروس وثيومبيوس ثم بوليبوس، وبذلك يكون المفهوم التاريخي قد توضح مع آراء الفيثاغوريين والأورفيين وفلسفة أفلاطون والمدرسة السفسطائية.

لقد أتاح اختراع الكتابة إمكانية الحفاظ على التجارب الماضية لتسجيل الحوادث المعاشة أو الخرافات وأخبار الملوك وثوراتهم للعرش وأحداث الانتصارات في الحروب، ويبدو أن هذا المظهر بقي عالقا بأذيال التاريخ حتى في وقتنا الحاضر.

ومما لاشك فيه بأنه ما من حضارة عرفتها البشرية في القديم قد أهملت تسجيل الأحداث، أو لم تسعى للاحتفاظ بالماضي وذكرياته بطريقة ما، أو لم تتطرق إلى النمطين من المدونات المشار إليهما، وقد انطبق هذا النمط على حضارات الشرق كالهند والصين وفارس، والحضارة المصرية القديمة وحضارات ما بين النهرين وبلاد الشام والمغرب، وحضارة الأزتيك والمايا.

أكد توكيديدس أن المعرفة التاريخية تطورت وأصبحت يافعة وتميزت بسهولة وسعة معلوماتها ودقتها، وبمحوه لذاته أمام الوثائق فهو يقدمها للقارئ بأصالتها، هذا إلى جانب تركيب تاريخي محكم وأسلوب تجاوز فيه طريقة السرد العادي للأحداث.

أما هيلانيكوس فقد قدم نوعا جديدا من التأليف التاريخي، وهو المسمى المنوغرافيا (Monographie) "دراسة تاريخ أو إقليم أو مسيرة شخص"، وقد كتب عن تاريخ (ايوليا) و(أركاديا) وتاريخ الفرس، إلا أن أعماله فقدت ولم تبقى لتصل للأجيال فيما بعد إلا ما نقله المؤرخون الآخرون منها.

أما في العهد الروماني فقد بدأ التمييز بين الإخباريين الساردين للأحداث بتأريخها الزمني سردا على الرغم من أنهم كانوا محدودي المعرفة، ويعتمدون في بحوثهم على وثائق بدائية، وبين المؤرخين وهؤلاء بدورهم أخذوا يظهرون اهتماما بالبلاغة الأدبية أكثر ما يظهرونه في بناء معرفة تاريخية موثقة ودقيقة لتنتصر بذلك تقنية التأليف الأدبي الذي يعتمد على البلاغة اللغوية والخطابة التي انبثقت في قلب الثقافة الإغريقية على تقنية التوثيق التاريخي.

- **علم التاريخ في العصور الوسطى:**

منذ منتصف القرن التاسع بدأ صراع بين الإمبراطورية والبابوية التي تولت من خلالها الكنيسة السلطة الدينية في العالم الغربي، فكانت بمثابة الزعامة الروحية في حين تمتعت الإمبراطورية بالسيادة الزمنية، ومع تزايد انتشار وتوسع المسيحية أخرجت الكنسية من الهيئة التي عُرفت بها في القرن الأول ليصبح لها فيما بعد هيكل يتمثل في القساوسة والأساقفة والكرادلة، ويجلس على قمة هذا الهيكل البابا، حيث سعوا إلى إنقاذ الكنيسة فنجح بعض هؤلاء أمثال بريجوري الرابع 833م، ونيقولا الأول 858م، وحنا الثاني الذي توج شارلمان الثاني في 875م في إعادة هيئة الأكليروس وسمو سلطة الكنيسة فوق السلطة الزمنية.

كما شهدت تلك الفترة (القرون الوسطى) ظاهرة الإقطاع، فأصبحت الأرض مصدراً هاماً للثراء والثروة، ومثالا للقوة والسيطرة، فانعكست تلك الأوضاع التي سادت أوروبا على علم التاريخ والكتابة التاريخية، فتولى بذلك رجال الدين بصفتهم مهيمنين على الأوضاع مهمه تسجيل الأحداث والوقائع ونشرها، مما أدى إلى قلة الاهتمام بها من طرف عامة المثقفين لأن الكتابة التاريخية

ارتبطت بهؤلاء الأديرة، وأصبحت في خدمة المسيحية مما نتج عن تلك الكتابات أن امتزجت بكثير من الأساطير، بالتزامن مع الظروف السائدة التي انتشرت فيها مظاهر العنف والتطرف الذي أدى إلى تدمير الكثير من مظاهر الحضارة الرومانية.

كانت الكتابات التاريخية في تلك الفترة وفي بادئ الأمر عبارة عن حوليات ثم ظهر بعد ذلك شكلان من المؤلفات التاريخية عُرف أولها "بالتواريخ" (Chronicles)، وكانت تُعنى بكتابة التاريخ العام منذ بداية الكون، ومن أشهر مؤلفاتها "تاريخ نانت" (Chronicles of Nantes) التي ظهرت في فرنسا وسجلت الأحداث التاريخية حتى عام 1049م، وفي ألمانيا ظهر تاريخ "الأنجلو ساكسون" (The Angl-Saxon Chronicles)، أما النوع أو الشكل الآخر فقد سُمي بـ"الكاتلوج"، وهو عبارة عن تراجم تهتم بدراسة وتسجيل كل ما تعلق بالشخصيات المهمة من الطبقة النبيلة ورجال الإقطاع وأيضا القديس، ومنذ القرن الثاني عشر ظهر كتاب لـ"روبرت تورجني" والذي سجل كل ما يتعلق بالأحداث ذات الوقائع المهمة والفاعلة إلى غاية وفاته سنة 1186م.

ومع مرور الوقت أدخل بعض المؤرخين النظرة الفلسفية للتاريخ، ولعل رائدها هو الأسقف "أوتو" 1285م، ثم دخلت بعد ذلك الكتابة التاريخية مرحلة جديدة بعد ابتعاد المؤرخين عن الكتابة بأسلوب الحوليات والروايات، مما جعلها تتخذ بعد ذلك صبغة علمية متزامنة بذلك مع انتقال التأليف التاريخي من رجال الدين إلى العلمانيين.

- **تطور الدراسات التاريخية في العصر الحديث:**

مع بداية النهضة الحديثة في أوروبا ومع التطور المستمر في الغرب الأوروبي فقد ظهر جناحان رئيسيان منذ القرن التاسع عشر، ويعتبر هذان التياران أساسيان، حيث توجه التيار الأول والذي سُمي بتيار الواقعية الموضوعية (Objective Empriricism) إلى اعتبار أنه من الممكن كتابة الحقائق التاريخية كما كانت في الماضي، في حين يرى التيار الثاني وهو تيار القائلين (The genetic view of history)، حيث استعمل روادها مصطلح التأريخية (Historisme) "الهيستوريزم" بمعنى أن التاريخ عملية توالد متتابعة ومستمرة ويؤمنون باضطراد التوالد من عصر إلى عصر، أما مؤرخو القرن العشرين فقد صرفوا النظر عن الموضوعية التاريخية، حيث أن جل

كتاباتهم التاريخية تأثرت بنظريات فرويد وأنشتاين وكارل ماركس مبتكرين بذلك ما يعرف بالنسبية التاريخية .

أما في وقتنا الحالي فقد اتجه الكثير من المؤرخين إلى دراسة الحروب والانقلابات الاجتماعية والبحث عن قوانين وضوابط وأسس تحكم سير التاريخ، حيث أن المؤرخ مهما فعل فهو لا يتصور أو يرى الماضي إلا من خلال عصره، بمعنى أنه لا يستطيع التخلي عن تفاسير مجتمعه والآراء السائدة فيه، وهو أمر إيجابي باعتبار أن المؤرخ بصفته خادما للجماعة الإنسانية ينبغي أن يكتب تاريخه في صورة ذات معنى وأهمية كبيرة له ولأبناء عصره، وهذه الأهمية والمعنى يعبّر عنها المؤرخون بما يسمى بارتباط التاريخ الحاضر (The Relevance of History to the Present).

اعتبر التاريخ في العصر الحديث بالنسبة للعالم الغربي فرعا ثانويا ذو أهمية قليلة، فإلى غاية منتصف القرن السابع عشر اهتم به الرهبان وحواشي الملوك ومعظم مدوناتهم مكتوب باللغة اللاتينية، أما القليل فهو مكتوب بلغة البلد الأم (فرنسية، ألمانية، إنجليزية)، وتشترك جميعها فيما يسودها من نقل وكتابة وإيمان بالخوارق والمعجزات وقلة ما يجده المؤرخ فيها من مادة تاريخية نافعة.

إن أهم ميزة للكتابة التاريخية في العصر الحديث هي انبعاث روح النقد، وقد ظهر هذا واضحا عندما أثبت "لورنز فالا" (1406–1457م) أن منحة قسطنطين هي عبارة عن وثيقة مزورة لا تعود إلى الزمن الذي إدعى فيه البابوات بأنها كتبت فيه، بل بعد ذلك بخمسة قرون ظهر من المؤرخين في إيطاليا "فالا ليونرد ويروني" (1369–1444م) الذي كتب نقد لتاريخ ليفي وترجم الكتاب المقدس، كما ألف كتاب تاريخ فلورنسا في اثني عشر جزءاً، ويعتبر أول كتاب مُلم بالمدرسة الحديثة، أما أصدق من مثّل هذه المرحلة (عصر النهضة) هو "هونيكولو ميكيافلي" (1469–1537م) الذي ألف كتاب الأمير وتاريخ فلورنسا.

شهد العصر 16 و17 مرحلة جديدة أطلق عليها بمرحلة الكشوفات الجغرافية التي كانت سبيلا لربط أوروبا بباقي العالم الخارجي لتتصل بحضارات المكسيك والبيرو وجزر الهند الغربية وجنوب إفريقيا، فاتسع في هذه المرحلة خيال المؤرخين الذين شمل مجال بحثهم التاريخي العادات

والتقاليد وكافة النظم السياسية والاجتماعية التي كانت مجهولة خلال العصور الوسطى، فأدت بذلك حركة الكشوفات الجغرافية دورا هاما تمثل في تغيرات اقتصادية أهمها ظهور الرأسمالية وتطورها ونمو الطبقة الوسطى وتدهور الإقطاع.

انشغل الأوروبيون بحروبهم الدينية والسياسية فأثر ذلك سلبا على الكتابة التاريخية حتى نهاية القرن 18 الذي انشغلت فيه فرنسا بالثورة الفرنسية، في حين ظهر في ألمانيا مجموعة من المؤرخين الذين كتبوا بأسلوب يناقض ما ظهر في كتابات فولتير من حيث العقلانية الجافة.

التزم المؤرخون في نهاية القرن 19 بمنهج علمي في الكتابة اتسم بالدقة والاستقصاء وإثبات الحقائق، حتى توافرت العديد من المعلومات والوثائق والمخطوطات في العديد من المجلدات وفي كل البلدان وبتشجيع من الحكومات، ومن هنا ظهرت أهمية التخصص الضيق فأصبح المؤرخ ينسب إلى المجال الذي تخصص فيه مؤرخ الكنيسة، مؤرخ في مجال اقتصادي أو مؤرخ للعصر الحديث وغيره.

مراجع المحاضرة:

- عادل حسن غنيم، جمال محمود حجر: في منهج البحث التاريخي
- الهادي التيمومي: المدارس التاريخية الحديثة
- ليلى الصباغ: دراسات في منهجية البحث التاريخي
- مولاي المصطفى البرجاوي: تطور الكتابة التاريخية بين منظورين، الثقافة الاسلامية في مقابل الثقافة الغربية
- اسماعيل محمود الزيود: ارهاصات النهضة في المجتمع العربي، دراسة سيسيولوجية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة